مياه عين الفيجة *

﴿ لمحة تاريخية ﴾ كانت مياه الفيجة في أيام الرومان كما كانت في أيام العرب موزعة بواسطة قناة محفورة في الصخور، مارة على سفح الجبل في وادي بردى من نبع الفيجة حتى أعلى نقطة في حي العالمية، ولا تزال آثار هذه القناة موجودة إلى يومنا هذا، ولكنها خربة في أكثر أقسامها. وهذه القناة كانت تسقي القرى الواقعة بين نبع الفيجة ومدينة دمشق، وما زاد منها بعد ما تأخذ مدينة دمشق حاجتها يتخذ لأعمال الري. وكان الاهمال سبب تخريب هذه القناة إذ أن صيانتها وترميمها وإصلاحاتها كانت تقوم بها، على ما يظهر، لجان من أهل المدينة والقرى على طريقة كري الأنهر المتبعة الآن في غوطة دمشق، وبذلك صارت عرضة للتخريب بسبب هجرها وعدم العناية بها.

وكذلك بقيت مدينة دمشق مدة طويلة محرومة المياه النقية. وكانت تستعمل مياه الأنهر التي كانت موزعة على البيوت بشكل طوالع وبحرات وجداول توزيعاً ضيقاً دقيقاً، فتستقي البيوت منها حاجاتها للشرب والاستعمال باستمرار وغزارة. إلا أنها كانت غير نقية، ولذلك كانت المدينة دوماً عرضة للأمراض والأوبئة. لهذه الأسباب لم يكن بد من وجدان مياه نقية صافية لأجل تأمين شرب الأهلين ولانقاذ دمشق من الأمراض والأوبئة. وعلى ذلك فكرت الحكومات منذ خمسين سنة ونيف في جلب كمية كافية من نبع الفيجة، وقد تأسس في ذلك الحين مشروع لإسالة مياه الفيجة بواسطة قساطل حديدية. وتم تنفيذ المشروع في زمن الوالي التركي الشهير ناظم باشا. وكانت المياه النقية المحصورة تبلغ ألفي متر مكعب وزعت على ما يقرب من خمسمئة سبيل كانت تسيل في ساعات معينة في الصباح والمساء، وبذلك أنقذت المدينة من تفشي الأوبئة.

﴿ تأسيس مشروع الفيجة العام وتوزيعه على البيوت ﴾ قام بدرس هذا المشروع بعض رجالات دمشق في عام ١٩٢٢ إذ كانت حاجة العمران تقضي بتوسع المدينة. ولما كانت المياه الموجودة لا تكفي للقيام بإنشاء أبنية حديثة فكروا في جلب كميات كافية من نبع

* استندنا في كتابة هذا البحث الى استطلاع خاص، فضلا عن بيان بعث به الينا الاديب خالد سعيد المحكيم المهندس المختص

الفيجة التي يبعد عن دمشق ثلاثة وعشرين كيلو متراً فهو أقرب الينابيع إلى المدينة، ومياهه غزيرة ونقية من وجهة التحليل الجرثومي والكيميائي. وكان قسم من مياهه قد سبل في أنابيب ووزع بواسطة الاسالة. فتقرر في ذلك التاريخ تأسيس لجنة باسم «لجنة مياه عين الفيجة» في سبيل درس مشروع جديد لجلب مقادير كافية، تمهيداً للتوسع العمراني، لأن الكمية الموزعة بواسطة الاسالة عادت لا تكفي لري الاهلين. فتألفت عندئذٍ في دمشق جمعية بالاشتراك مع غرفة التجارة لتهيئة المشروع والدعوة اليه. وإذ كان هذا المشروع من المشروعات العامة اتفقت جمعية ملاكي الماء مع بلدية دمشق على تنفيذه بعد أخذ امتيازه من الحكومة، وذلك بالرغم من وجود شركات أجنبية كانت تسعى إلى أخذ الامتياز على قاعدة الاستثمار. وفي ٢٣ شباط (فبراير) من عام ١٩٢٤ عقدت اتفاقية بين حكومة دمشق ورئيس بلديتها نصت على كيفية العمل وعلى إدارة المشروع من قبل لجنة مزدوجة. ولقد كان لمعالي لطفي بك الحفار فضل الظفر بامتياز المشروع باسم مدينة دمشق، وقد بذل الكثير في سبيل تحقيق المشروع سنين طويلة ثم قام بالاشراف على أعماله بهمة عالية وإخلاص.

وفي الخامس عشر من شهر حزيران (يونيه) من عام ١٩٢٥ عُرض المشروع للالتزام. فتقدمت من مختلف بلاد العالم شركات قديرة من الجهتين المالية والفنية للمناقصة. وبعد دراسة المشروع دراسة فنية، تم نالت الالتزام إحدى الشركات الكبرى. وبوشر العمل في أول أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٢٥.

وقد كان الرأي الأول سحب الماء بواسطة أنابيب جديدية، كما جرى من قبل. ولما كانت تكاليف الأنابيب الحديدية تقارب النفقات اللازمة لإنشاء قناة في شكل نفق أوثرت الطريقة الثانية لجملة أسباب فنية. أهمها إمكان جلب مقادير كافية من المياه لسد حاجة دمشق وتخفيف نفقات الترميم والاصلاح، وبذلك تقل نفقات الاستثمار علاوة على أنه يستفاد من حجم قناة النفق لتأسيس ظلال للماء. وبعد أن تقرر إنشاء القناة بدئ العمل في آخر عام ١٩٢٥. وقد بلغ طول القناة المذكورة ثمانية عشر كيلو متراً، لأن القناة طريقها يقرب من الخط المستقيم، وهي مؤلفة من أربعين نفقاً وثلاث قنوات مبنية بالاسمنت المسلح وأربعة جسور يختلف طولها بين ١٥ و ٥٠ متراً بنيت بالاسمنت المسلح ثم تماص (سيفون) كبير مبني بالاسمنت المسلح طوله أربعمئة متر في وادي قرية دُمَّر التي تبعد عن دمشق سبعة كيلومترات. وعمق الوادي تحت سطح النفق يبلغ أربعين متراً. وقد بني الماص (السيفون) في شكل أنبوب بمقطع دائري قطره متر واحد من الداخل.

أما مقادير المياه التي تسيل في هذه القناة فتبلغ ثلاثة آلاف لتر في الثانية . تأخذ المدينة منها خمسمئة لتر، أما الباقي وقدره ألفان وخمسمئة لتر فيُصبُّ في شلال الماء المنشأ أسفل معمل كهربي في موقع « الهامة » لإضاءة المدينة ، لأن الشلالات القديمة صارت لا تفي بالإنارة

وقد بلغت نفقات الأعمال الإنشائية ٢٧٠ مائتين وسبعين ألف ليرة عثمانية ذهبية. وقد انتهى المشروع في عام ١٩٣٢ ، فأسيلت المياه في بيوت المدينة .

وأما طريقة التوزيع فهي طريقة لا تشابه الطرق الجارية في سائر المدن العالمية ، لأن المشتركين في دمشق يملكون أمتاراً من الماء ويدفعون قيمتها لأجل تأدين رأس مال المشروع ، وهم يستمتعون بالماء في بيوتهم ويدفعون عنه رسماً سنوياً في رأس كل سنة لقاء نفقات الترميم والإصلاح والاستثمار . وهذا الرسم السنوي يختلف في كل سنة إذ يزيد أو ينقص بنسبة النفقات السنوية الضرورية والاستثمار ، وبنسبة نصف المتر أو متر الماء الذي يكون قد اشترك فيه المشترك وسحبه إلى داره . وتوزّع المياه المشترَك فيها بطريق المزاحمة حصراً لمقادير الماء المحورة . وبعض أهل دمشق يطلبون الاشتراك بطريق المزاد ، وعددهم لا يزيد على ألف مشترك إلى الآن . ويبلغ مجموع المشتركين ٣٠٠٠ مشترك ، منهم المقيمون بالمناطق العسكرية ، واشتراك هؤلاء نحو ٥٧٥٠ متراً مكعباً . ولم يدفع الأهلون حتى عام ١٩٤١ من مجموع الـ ٢٧٠ الف ليرة عثمانية ، وهي مقدار النفقات ، سوى مبلغ ١٣٠ ألف ليرة ذهبية ، وسُدد الفرق بفضل اللجنة بوساطة قروض عقدت مع الحكومة التي لمست الحاجة إلى إقامة هذا المشروع الحيوي للمدينة والذي ينفذ بعناية من الوجهة الفنية وبانتظام من الوجهة الادارية . وقد وفقت اللجنة لإلغاء جميع الفوائد التي نصت عليها عقود الدين مع الحكومة ودفع القسم الكبير من الدين أو قيمة القروض التي افترضتها اللجنة من الحكومة لقاء ضمانات كبيرة . ثم فُسِّطت بقية هذا الدين على عدد محدد ينتهي جميع الدين بانتهائها .

ثم أنشئت دار للمصلحة في أشرف بقعة من المدينة ، وهي آية من آيات الطراز الحديث في صورته العربية من حيث البناء والنقش والزخرفة والأثاث ، ولا يكاد يماثلها بناء في جميع الشرق العربي . وأما الذي أبلغها هذه الروعة الفنية السليمة فهو المعلم محمد علي الخياط الشهير بأبي سليمان ، فقد قام بمعاونة أولاده بصناعة هذه التحفة فيام الحاذق العارف بدقائق الفنّ العربي السليم .